مكتبة المقتطف

فك الاغلال

موطن الداء في التقليد وانعدام التربية الاستقلالية

لحق بالجزء الصادر في غرة شهر يناير الماضي ، من مجلة المقتطف الزاهرة ، بحث ذو جدة وطرافة ، رحب المجال ، مترامي الأطراف ، للاستاذ العلامة المفكر اسماعيل مظهر ، رئيس تحرير المقتطف ، عنونه بفك الاغلال ، أو بحث في الثقافة التقليدية ، وعلاقتها بالتربية القومية ، دار به وألمّ بما ثار من اهتمام رجال التعليم عندنا والخبيرين به ، وما عقدوا من مؤتمر أجالوا فيه الرأي ، وتساجلوا فيه البحث ، ليبلغوا مقطع الاصلاح فيه والتقويم ، وما أذاعوا من قرارات على انها لباب أبحاثهم ، ومصاص آرائهم . بيد أن الاستاذ مظهر اعتزلهم جميعاً فيما تساجلوه ، ونكب عن نهج ما سلكوه . لقد قصد غير قصدهم ، وصمد الى سمت لم يكونوا مستهدفيه ، بل أتى البيوت من أبوابها ، فتساءل عن الغرض من التعليم ، وعن السبيل التي ينبغي أن نسوق فيها أبناءنا إذ يتعلمون . فأرانا ، وانه للحق الذي لا مراء فيه أن التعليم الصحيح إنما يكون ويتم بأن نصل بينه وبين الحالات الاجتماعية التي تكتنفنا ، وانه الذي يتصل بثقافتنا التقليدية .

وما كان هذا البحث للأستاذ مظهر ، الذي دلّ على مصروف جهد ، ومبذول عناية ، ليمر به القارىء مرور العابر الذي لا يوليه لمحة تقدير واستبصار ، ولا يقف عنده وقفة تقدير واعتبار . فانه حقيقٌ بنا ، ونحن في مطالب الاستقلال وملتمس النهوض والرقي ، ان نهش لكل بحث من هذا الضرب ، ونشجع كل ذي قول نافع ، وسعي صالح ناجح . لقد ذقنا ، وحقك ، في هذا البحث طعماً جديداً ، وطعمنا غذاءً مفيداً . إنا الى هذه الاقوال تحن نزوعنا . والى مثل هذه البحوث تصبو نفوسنا .

نضرب لك مثلا ، إذ يتكلم عن المتعلمين عندنا من متخرجي مدارسنا ، وكيف فقدوا كل ضروب استقلالهم ، فيقول :

« بدأت هذه الحال تؤثر في مرافقنا الحيوية ، حتى لقد نزعنا الى القول بأن كل ما هو أوروبي جميل ، وكل ما هو مصري رديء ، وكل فكرة مصرية لعب ولهو ، وكل فكرة أوربية جد ورجولة ، وكل فن مصري بدائي وغير متفق وروح العصر ، وكل فن أوروبي ، مهما كان فيه من بعد وتضاد مع نزعاتنا وتقاليدنا المصرية ، بل ومع آدابنا المرعية والعرف الانساني ، حضارة وتمدين . وشملت هذه الحال فتياننا وفتياتنا ، فألسنتهم لا تتحرك إلاّ بكل ما هو أوروبي غربي ، وقلوبهم لا تهفو إلاّ لكل ما هو بعيد عن المصرية » .

وإذ يتكلم فيما صار اليه الأدب المصري من شحوب العلة، وسقم الركاكة وآفة التقليد فيقول :

« ذلك بأن كثيراً مما نقرأ في الصحف والمجلات ، وكثيراً من المؤلفات يجري هذا المجرى ، ويسيل هذا السيل ، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث ، لكثرة ما فيه من الرقع والرتوق ، ولكثرة ما فيه من صور الامم الاوربية ، كأنه « عصبة أمم » ولكن في صحف سطرت بكلمات عربية » . وإذ نسمعه يقول :

« وما قولك في شاب يخرج من التعليم الثانوي جاهلاً لغته العربية وأصولها وآدابها ، غير متصل بآداب دينه ، غير عارف بشيء من تاريخ بلاده ، وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر ، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأي من اللغتين الاوربيتين اللتين يتلقاهما في مراحل ذلك التعليم »

لعمرك . هذا قلم يسبر القرح، ويتلمس مكان العلة . ثم هو نطاسي لم يدعك دون وصف العلاج الشافي والدواء المبرىء .

وبعد فقد عجبنا أيما عجب مما أشار اليه الأستاذ مظهر من انه قرأ في العهد الأخير تقريرين عن التعليم في مصر لعالمين أجنبيين ، استقدمتهما وزارة المعارف ، أحدهما انجليزي ، والآخر سويسري ، ليدليا برأيهما في اصلاح التعليم المصري !

يا عجباً ! ما لهذين العالمين الأجنبيين والتعليم في مصر ! أغار معين العلم في هذه الامة ؟ هل أمست الديار قفراً من عالم عندنا في التعليم، أو فقيه طَبٍّ في فنون التربية ؟ وماذا بعد هذا ، إذا كنا نقول باننا أهل أم المدن في مشرق الأرض علماً وحضارة ، وليس لدينا عالم في هذا الضرب من المعارف البشرية ؟ وماذا رجاؤك منا اذا كنا ، بعد أن ملأنا أرض مصر مدارس عالية ، وخرّجنا منذ السنين الخوالي المديدة ، وفي كل عام ، العشرات من علماء التعليم ، وخبراء التربية ، نروح نلتمس عالماً من علماء التربية ، في رقعة من الأرض نائية ، يحمل سراجه بيمينه ليرينا وضح السبيل ؟

لعمرك ألاّ نبأتني ما علم هذين العالمين بعجز مصر ، وهجو مصر ، وحال مصر ، وما

يتلجلج في صدرها، وما هدّ جسمها من سقم، وأذاب لحمها من شجن، وما توجوح منه وتئن، وما ينبض به قلبها من خفيات السرائر، وأشتات اللواعج ؟ ألها يشرك معنا في ما نعاني وما نصرخ منه ؟ وما الذي سوّى بيننا وبينهم في الحاجة والمطلب، والمشرب والمذهب ؟

لقد استخفنا أنفسنا، حتى صرنا في عيون هؤلاء الاوروبيين كثمالة القدر، ونفاضة العيكم، واستقللنا عديدنا، ووزنا على حاضرنا وماضينا، حتى استنسروا وصرنا بغاثا. يا ويحنا ! هانت علينا نفوسنا ولم تكرم، فأصبحنا في كل شيء مقلدين، وفي كل شيء تقتص آثار أولئك الغربيين، وفي كل شأن لنا نستجليهم ليقضوا فينا قضاءهم، ونحكم اليهم ليلغوا بنا، في خاصة أمورنا، المفصل والمقطع ! حتى ولو أكبرونا، وقالوا أنتم في هذا الاعلون وأنتم عليه قادرون، وحتى لو أنهم التمسوا أن نخليهم مما زعمنا أن عندهم قضاءه، وبأيديهم نواصيه، ولهم فيه فصل الخطاب، بل ولو صارحونا بأنهم منه براء، وبه جاهلون، كما سجل علينا المستر مان أحد هذين العالمين المستجلبين، في صراحة العالم ذي الفضل، في تقريره بأنه « يتعذر عليه أن يلم إلمام المحيط بالحقائق الاساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم » !

في عام ١٩٣٢، أقامت وزارة المعارف المصرية مؤتمراً للموسيقى، أسمته مؤتمر الموسيقى الشرقي، ولكن إن هي إلاّ أسماء سميتموها. لم يكن شرقيًّا إلاّ بالاسم، إذ دعت اليه أقطاب علماء الموسيقى، من حيث ذرّ قرن شمس وغرب، فوفد علينا منهم الانجليزي، والفرنسي، والايطالي، والالماني، مع أبناء قرابتنا، من موسيقى سوريا والمغرب والعراق ومن اليمن، وقيل لهم ابحثوا، في ما أنتم باحثون، ما إذا كانت الموسيقى الشرقية تنمو وترتقي بتطعيمها بالموسيقى الغربية أو بخلطها بها خلط السمن بالعسل !

انعقد ذلك المؤتمر العجيب في الرابع عشر من مارس ١٩٣٢، ومكث الى ابريل من تلك السنة، وقد كنا من ضمن المشتغلين بالترجمة في ذلك المؤتمر. فهل علمت ما قرروا، إذ انفض مؤتمرهم ؟ اجتمعت آراؤهم، وهم، كما علمت طائفة من علماء الموسيقى الغربية، على أن الموسيقى الشرقية لها طابعها الخاص، وكذلك آلاتها، فليس من الخير في شيء اندماجها في الموسيقى الغربية. لكلا وجهة هو موليها. صبغة هذه الشرق، وصبغة تلك الغرب لا ائتلاف بينهما ولا امتزاج. وان الموسيقى الشرقية عزّة لها، وجمال، وطرب وفخامة أن نصونها من كل خلط، أنغاماً، وألحاناً، وآلات.

ومع ذلك مكث قوم منا لا يعقلون، وما فتئوا في غمرة ما كانوا فيه يعمهون، خلطوا الموسيقى المصرية الشرقية بمثلها فرنجية، فأبلوها بالسقم، وأشاعوا فيها الفساد. تسمع

اليوم أغاني كلها رطانة، وألحاناً لم تتجاب ولم تتآلف، من هذا الذي سمره بالجديد، الصنعة فيه هزيلة، والطرب عنه ناء بعيد.

الموسيقى الشرقية البحتة، والمغاني الشرقية الخالصة، من أهم مزاياها الطرب والاهتزاز، ولا سيما المصري الذي طبع عليها، وهي منه في قرارة نفسه، مغروزة في غرائزه، والطبع يحن الى ما يفقه ويصبو الى ما لاق به. فأنت لا تسمع لحناً شرقيًّا صرفاً، كأن تسمع موشحاً من الموشحات أو «دوراً» من القديم، لعبده الحمولي أو لمحمد عثمان، الا ألفيت نفسك حيث مالت أنغامه، فأنت تميل، وإذ تهبط فأنت هابط، وأنى تصعد فأنت صاعد، سكران مترنحاً وما بك من سكر، ولكنه التطريب العجيب.

وهي ذات أثر طبيعي عميق، فلست إذ تستمع لها، تملك قياد نفسك، ولا لك الى تهدئة عواطفك وأعصابك من سبيل، وكأنما هي تولج أصابعها في سويداء القلوب وأغوار الارواح، فتعبث بها، وتروح تقلبها، وتبسطها، وتطويها على الهوى.

وهي ذات صنعة، وفن متين. فالموشح والدور القديم، ثروة من لطيف الصنعة، ودقيق التلحين. وهو قطعة من الفن البارع كجلمود صخر حطه السيل من عل، لا يغنيها الا شيخ من شيوخ المغنى، ولا ينقه كنوز بدائعها الا قطب من أقطاب الموسيقى، ولا يجيد انشادها، ولا يجد سلطاناً على الاطراب بها والجولان في أقطارها، الا فارس ذلك الميدان.

استمع ياسيدي المصري السليم الفطرة، الى دور مما كان يغنيه عبده الحامولي، ومحمد عثمان، ويوسف المنيلاوي، وعبد الحي حلمي، وسالم العجوز، وأضرابهم من فرسان المغنى القديم، والموسيقى الشرقية غير الهجينة، ثم استمع الى دور من وضع اليوم، أو قطعة من تأليف هذا الجديد، وحدثني مخلصاً، أين كان طربك، ومع أيهما كان ذهابك مع الأنغام كل مذهب، وأين كنت كالسكران، وما احتسيت خمراً؟

بل استمع أم كلثوم حين تنشدك (وحقك أنت المنى والطلب) مثلاً، وهي قصيدة مزوقة من الأدب العربي، وهي فيها مغنية، كما علمت، من فوارس الغناء المصري، واستمعها هي نفسها، حين تنشدك أي لحن من هذه الألحان الجديدة المحشوة بالأنغام الافرنجية، مما يؤلفه من أجلها الأستاذ القصبجي، وانظر، صادق الفطرة، أيهما أنت به مسحور طروب.

واسمع عبد الوهاب، وهو زعيم المجددين، وكبير المغرمين بدخيل الأنغام الافرنجية، اسمعه حين يلعب بلبك، ويستطير فؤادك، وهو ينشدك قصيدة (تعالى نفني نفسينا غراماً) ثم اسمعه في أي دور أو لحن من جديده الذي أغرق في وضعه وغالى، وقل لي بحقك، من هو المغني المطرب المبدع، والفارس ذو الكر والفر، أعبد الوهاب في قديمه، أم عبد الوهاب في هذا الجديد؟

كل دائنا . يا سيدي القارىء الكريم، في ضعف التربية الاستقلالية عندنا ، وفي المبادرة الى التقليد، وهناً وهواناً. فرمينا بهذا الذي حسبوه تجديداً، تجديداً في الموسيقى ، والأدب، والفن وأمور أخرى ، تراه كالرقعة في الثوب ، تزري به ولا تصلحه . فالتجديد في الموسيقى ، إن هو إلا أنغام فرنجية بمقدار الثلاثة الارباع ، وأنغام مصرية شرقية بمقدار الربع ، خرجوا منها لك خليطاً عجيباً . جديدهم هذا قد أفسد روح الموسيقى الشرقية ، والمغاني العربية ، فأضعف سلطانها على النفوس ، وتراكض اليها كل ممترخ المُنّه ، فاتر الهمة ، يستقرب الموارد ، ويستدني المطالب . ويفر من السعي والكد .

ومثله ما زعموا من هذا التجديد في الأدب ، كلما أخذ العجز كاتباً منا بكظمه ، وضعضع لبّه بلادته واسترخاؤه، وكلما ألفى الأدب الصحيح الصريح يتطلب منه الاجتهاد ، ككل كاتب وأديب في أدب لغته من كتاب الغرب ، واضطراره الى إمعان البحث في كتب اللغة ، وبسطة العلم بأساليب الكلام العربي المبين ، وطول الكد في استيعاب فنون الأدب ، ثم يكون قد ألمّ بلغة من لغات الغرب ، قد استهوته وأمرت لبه ، هرول اليها يخلط أساليبها بأساليب العربية ، وأقبل يخاطبنا بعذق عجيب ، وخلط مريب ، ثم يلطم به وجوهنا على انه تجديد !.

بالأمس الغابر جمعت إحدى الكاتبات الانجليزيات ، وقد طوّفت بالأحياء الوطنيــة : الازهر وسيدنا الحسين ونظائرهما ، فشاهدت بعض الابنية من التراثي أكل الدهر عليها وشرب ، وبعض رسوم واطلال بانيات كوشم اليدين مما بنى السلف ، وفيه جمال وزخرف واتقان ، فنال منها الغيظ ، ومضها الالم أن تجد مصلحة تنظيم مصر ، تفتح شوارع جديدة ، فلا تبقي على تلك الآثار ولا تذر ، فكتبت في جريدة الاهرام الغراء تقول في لهجة المضّان : « إذا كنتم ترومون أن تحيا القاهرة في صورة ناصعة من عواصم أوروبا ، فماذا تأتي لتشاهد في بلادكم ؟ وإذا كان الزائر الاوروبي ينتقل من شارع في بلاده الى شارع مثله في بلادكم ، فان دياره أولى به . ان لكل بلد تقاليده وآثاره ، فما لكم تطمسون معالمها ، فاذا أنتم لا تاريخ لكم ولا شأن ممتاز ؟ » .

وضعت مدام دي ستال الكاتبة الفرنسية النابغة في القرن التاسع عشر ، كتاباً عن ألمانيا نقتطف منه هذه العبارة ، وهي جديرة بأن نختتم بها قولنا ، قالت :

« القوة الحقيــقية لشعب ما ، كامنة في فطرته التي فطره الله عليها . وتقليد الاجنبي ، أيّا كان ، وكيفما كان ، مضعف لوطنيته ، مذهب لكرامته »

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أحمد أبو الخضر منسي